[1]الله الخالِق

إن الله هو الوحيد الخالق. أمَّا كـل ما وصل إليه الإنسان من اختراعات عجيبـة، فما هو إلاَّ نوع من الصُّنع. فالصَّانع يصـنع أشـياء من مواد موجودة. أمَّا الخالق فإنه يخلق من العدم.

أي أنه يُنشئ شيئًا من لا شيء. والله جلَّت قدرته خلق كل شيء من لا شيء.

في الأزل كان الله وحـده، ومن تواضع الله، ومن كرمه وجُوده خلق كائنات أخرى متنوعة في هذا الكون كله: خلق كائنات مادية ليس لها حياة ولا فهم. وخلق كائنات روحية تمامًا هي الملائكة. وخلق الإنسان خليطًا فيه المادة التي هي الجسد وفيه أيضًا الروح وفيه العقل... ولم يكن الله محتاجًا إلى هـذه الخليقـة، بل هي المحتاجـة إليه. لم يخلق الإنسان لكي يُمجِّده. فهو من قَبل الإنسان كان ممجدًا من ملائكته، ومن قَبل الملائكة كان مُمجَّدًا بطبيعته الإلهية القادرة على كل شـيء. والله قبل أن يخلق الإنسان، خلق له كل ما يحتاج إليه لقيام حياته.

وخلائق الله متنوِّعـة: فيها الجماد الذي لا حياة له، وفيها الحيوان الذي له نفس تنتهي بموته، وفيها الملائكة الدائمة الحياة، والإنسان الـذي له حياة أخرى بعـد موته. ومن عظمة الله العدد الهائل من مخلوقاته التي تصل إلى ملايين الملايين، التي تتكرَّر في كل جيل أو كل عام. وبعضها لا يُحصى مثل رمل البحر، وما تحويه السماء من كواكب ومجرَّات، ومن مخلوقاته الأشياء الظاهرة التي نعرفها، والخفي الـذي لم نعرفه بعـد، سـواء في بـاطن الأرض أو داخـل الجبال أو في أعمـاق البحار، ومـا تظهره لنـا البراكين، وأعمـال التنقيب والحفر، وتوجـد معاهـد لعلوم البحـار وأخرى لعلوم الفضـاء. ومعاهـد للجيولوجيـا وأخرى للفَلـك، ونحن باسـتمرار تزيـد معلوماتنا عن ذلك الجانب الخفي من خلق الله.

وإلهنـا الحكيم في خلقه وضع نظامًا عجيبًا يربـط خليقته بعضـها البعض. وهنـاك نظـام للأجواء يشـمل الحر والـبرد والعلاقـة بين الرياح والأمطار وباقي الهواء، وتوالي الليل والنهار، والظلمة والنور، والرطوبة والجفاف... كل ذلك بدقة عجيبة بحيث يمكن اسـتنتاج ما يمكن أن يحـدث بعد حين. خلق الله النور للعمل، والظلمة للراحة... إنه عالم مُنسَّق ومنُظَّم. وهناك نظام لدورة الأرض حول نفسـها أمام الشمس طول الأربعة والعشـرين ساعة لا يختل على مدى الدهور الطويلة، وينتج عن ذلك الليل والنهار، ودوران القمر حول الأرض مرة كل شهر ينتـج عنه أوجه القمر من هلال وتربيع وبـدر وأحـدب ومُحاق... كل هذا في نظام ثابت تدل على قوانين فلكية حتى أن بعض الفلاسـفة القُدامى كانوا يُسمُّون الله بالمهندس الأعظم.

نضيف إلى ذلك ما وضعه الله من نظام وتناسق في جسد الإنسان سواء في علم وظائف الأعضاء، أو في المُخ وتركيبه وعمله، ومـا يصـدره من أوامر لبـاقي أعضـاء الجسـد ومـا فيه من مراكز الحركـة والبصـر والسـمع والـذاكرة لغير ذلك. كـذلك عمل القلب والجهاز الـدوري وما يتعلَّق بـذلك من ضـغط الدم، وفصائل الدم التي تتغيَّر من إنسان إلى آخر... وباقي الأعصاب وعملها... والأجهزة الأخرى في جسم الإنسان مثل الجهاز الهضـمي، والجهاز التناسلي، وقوانين الوراثة كل ذلك عجب في عجب... صدقوني حتى مُجرَّد الأسنان. هذه العظام الصـغيرة التي ليسـت في حجم العمود الفقري وباقي العظام! لأن كل سِـنَّة أو ضِـرس منه هي عالم عجيب تربطه أعصاب ودم، وعمل متناسق لا يمكن إطلاقًا أن تماثله أسنان صناعية.

بل إن عجب الله في كل خلقه، يظهر عميقًا جـدًا في بصـمات الإنسان: فكل إنسان خلقه الله له بصـمات خاصـة به تختلف عن بصـمات أي إنسـان آخر. وهنـا نقف في ذهول أمـام ملايين ومئات وآلاف الملايين من البصـمات التي لا تتشابه!! بحيث لا يسـتطيع أي مهنـدس أو رسَّام مهمـا كانت براعته أن يرسم بصـمات مثلها... وما نقوله عن بصـمات الأصابع نضم إليه أيضًا بصـمات الصوت المتنوعـة. بحيث يُكلِّمك أي شـخص في التليفون مثلًا، فتسـتطيع أن تُميِّز صوته وتتعرَّف عليه. كما نسـتطيع أن نضـيف إلى كل هذا ما خلقه الله، نرى أيضًا قوة الخـالق العظيم في عـالم الأرواح: سواء قـدرته في خلق الملائكـة الأطهار الـذين قِيـل عنهم أنهم ملائكـة من نور الذين ينتقلون من السماء إلى الأرض في لمح البصر.

والذين لهم قوة عجيبة في الإنقاذ، وصُنع المعجزات. والذين لهم مثالية عديدة في الطهارة والنقاوة...

ويمكن أن ننزل في مسـتوى الأرواح، إلى عظمـة الله في خلق روح الإنسان، وصِلة هذه الروح الإنسانية بالجسد، وصلتها أيضًا بالعقل، وبالضمير، وبالحياة والموت، هـذه الروح الخالـدة العاقلـة الناطقـة، ومصـيرها بعـد الموت، وعودة الروح مرَّة أخرى إلى الجسد في القيامة العامـة، ومـا يحيـط بكل ذلك بأسـرار. وما أكثر ما فكَّر علماء الأرواح وأحاطوا كل علمهم بعبارة لا أعرف! يكفي أننا كُلَّما نتطرَّق إلى عالم الروح أن نذكر قدرة الله الخالق العظيم

ولماذا نتكلَّم عن المستويات العُليا؟ فلنهبط إلى مستوى المخلوقات البسيطة كالحشرات فلنتحدَّث مثلًا: فما أعظم قوة الله في خلق النحلة مثلًا كالتي تنتج رحيقها من الأزهار وتحوله بدقة عجيبة إلى عسل، وأكثر من هذا إلى غذاء الملكات، فنعرف كم وهبها الله كي يهبها لنا.

كذلك النملة في نشاطها العجيب الذي أصبح مثلًا للبشر... كل ذلك يرينا عظمة الله في خلقه، سواء في السماء العالية أو في الحشرات البسيطة، في الجبل العالي، وفي الوادي المنخفض، في الأسد القوي الشجاع، وفي الأرنب الضعيف الخائف.

ونحن إذا تأمَّلنا في قوة الله الخالق إنما نصل إلى قوة الله غير المحدودة وإلى قدرته التي تشمل كل ما يحيط بنا، وإلى حكمته، وحنوه على الكل. وفي كل ذلك نشكره على ما أعطانا إيَّاه من عقل ولا يتملكنا الغرور كبشر في كل ما ننتجه كبشر، إنما هو بسبب العقل الذي خلقه الله لنا، تبارك اسمه.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 23-8-2009م